



1 - لا يعني التنويه بأهمية أعمال القلوب وأنها الأصل وأعمال الجوارح تبع ومكملة، لا يعني ذلك التقليل من شأن أعمال الجوارح، أو ترك أعمال الجوارح على حساب أعمال القلوب. فأعمال القلوب غالباً ما تقوم إلا بأعمال الجوارح، كما أن أعمال الجوارح لا تنفه وتقبل إلا بأعمال القلوب.

يقول ابن القيم رحمة الله تعالى:

[الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وأنقياده ومحبته. فلا ينفع ظاهر بلا باطن له، وإن حَقَنَ به الدماء وعَصَمَ به المال والذرية. ولا يُجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه خوف هلاك. فتختلف العمل ظاهراً مع عدم المانع دليلاً على فساد الباطن وخلوّه من الإيمان، ونقشه دليل نقصه، وقوته دليل قوته] (1).

2 - إن أعمال القلوب منها قدر واجب، ومنها قدر مستحب، كما أن أعمال الجوارح منها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب، ولا شك أن الواجب مقدم على المستحب سواء كان من أعمال القلوب أو أعمال الجوارح.

فمن أعمال الجوارح ما تركه كفر كالصلوة، ومنها ما لا يكون صلاح الأمة إلا به كالجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى سبيل الله جل وعلا وتربيبة الناس وتعليمهم وغيرها.

يقول ابن القيم رحمة الله تعالى مبيناً أقسام أعمال القلوب، وأعمال الجوارح، وأفضلية أعمال القلوب في كل قسم: [...] وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديمة أو قليلة المنفعة] (2).

3 - إن أعمال القلوب وقيام القلب بها والسعى لتكميلاً لها ليس أمراً مستحيلاً أو أمراً يصعب تحقيقه؛ لأن الله جل وعلا من رحمته بعباده لا يأمرهم ويوجب عليهم ما لا يطيقون. قال تعالى: **{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مُسْعَدًا}**. ولكنها تحتاج إلى تربية ذاتية وجihad نفس، وقد قال جل وعلا: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَهُدِّيَّهُمْ سُبُّلًا}**.

4 - عدم اليأس من روح الله في تحقيق أعمال القلوب؛ خاصة إذا كان في القلب أمراض وآفات ، ويتبين ذلك خاصة عند الحديث عن الإخلاص والصدق مع الله والحذر مما يضاههما، حينها قد تجد من النفس انقباض ونوع يأسٍ من تحقيقها في القلب، ولكن هذا في الحقيقة من وسوسات الشيطان وتخديله أعاذنا الله منه.

5 - الحذر من اتهام الناس بضعف أعمال قلوبهم، أو الحكم على نياتهم وسرائرهم، فما في القلوب لا يعلمه إلا علام الغيوب.

وبالمثال يتضح المقال:

المثال الأول: قد يكون لشخص أو مجموعة مشروعًا دعويًا أو تربويًا أو علميًّا، ولكن مع مرور الوقت كانت نتائج المشروع ضعيفة، حينها قد يحكم بعض الناس عليهم بفساد نياتهم وسرائرهم أو ضعف أعمال قلوبهم.

ومما يبين خطأ هذا الحكم قصة نوح عليه الصلاة والسلام الذي كان من أولي العزم من الرسل؛ فقد كانت زوجته وأحد أولاده كافرين؛ فليس لقائل أن يقول: أين ترببته لولده وزوجته؟! كما أن نتاج دعوته عليه الصلاة والسلام: {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}. فلا يمكن لقائل أن يقول: أهذا نتاج دعوة {أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}؟!

وفي الحديث: "عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد" (3).

وفي هذا السياق كم من العلماء الأجلاء في هذه الأمة – وقد شهد لهم بالعلم والفضل – أفنوا جل سنى أعمارهم في العلم والتعليم، والكتابة والتأليف؛ فمنهم مَنْ كان له مذهب في الفقه متبع، اندثر مذهبه وغنى أثره، ومنهم من كانت له كتب ومؤلفات فقدت ولم يوجد لها أثر، أو وجد بعض أجزائها. فليس لطاعن أن يطعن في سرائرهم، أو أن يتهم نياتهم؛ فلا يعلم بالنيات إلا رب البريات.

المثال الثاني:

قد يقع شخص في بعض المخالفات الشرعية والمعاصي الظاهرة، ولكن ليس لأحد أن يتهمه في باطنها، وليس هذا تعليلاً أو إعذاراً للعصي، ولكن تحذيراً من اتهام النيات والسرائر.

فقد يكون في قلب من عليه مخالفات شرعية من محبة الله ورسوله ما لا يعلمه إلا الله، وفي الحديث عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان على عهد النبي كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً، وكان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب، فأتى به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العن، ما أكثر ما يؤتي به؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تعلنوه، فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله" (4).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: [وفيه أن لا ينافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب لأنه صلى الله عليه وسلم أخبر بأن المذكور يحب الله ورسوله مع وجود ما صدر منه، وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله ورسوله] (5).

وقد يكون لمن عليه مخالفات شرعية خبيئة حسنة أو عمل صالح قد يكون سبباً في تكثير سيائسته. وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يُصَاحِ بِرَجُلٍ مِنْ أَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَؤُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنَثَرُ عَلَيْهِ تَسْعَ وَتَسْعُونَ سَجَلًا، كُلُّ سَجْلٍ مِنْهَا مَدًّا لِلْبَصَرِ، فَيُقَالُ: هَلْ تَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيُقَوْلُ: لَا يَا رَبِّي، فَيُقَوْلُ: لَا ظُلْمٌ عَلَيْكَ، فَتَخْرُجُ لَهُ بَطَاطَةٌ قَدْرُ الْكَفِ، فَيَهَا شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيُقَوْلُ: أَيْنَ تَقْعِدُ هَذِهِ الْبَطَاطَةُ مِنْ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَتَوْضُعُ هَذِهِ الْبَطَاطَةُ فِي كَفَةِ الْمِيزَانِ، وَالسَّجَلَاتُ فِي كَفَةِ الْمِيزَانِ، فَنَقَلَتِ الْبَطَاطَةُ وَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ" (6).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن هذا الحديث: [فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق، كما قالها هذا الشخص، وإنما أهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم يقولون: لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيرتهم، كما ترجح قول صاحب البطاطة] (7).

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بِينَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَبِّكَيْهِ كَمَا يَقْتَلُهُ الْعَطْشُ إِذْ رَأَهُ بَغِيًّا مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مَوْقَهَا فَسَقَتْهُ، فَغُفرَ لَهَا بِهِ" (8).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الحديث: [فهذه سقط الكلب بإيمان خالص كان في قلبه غفر لها، وإنما ليس كل بغي سقط كلباً غفر لها، وكذلك هذا الذي نحي غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه، غفر له بذلك] (9).

= يتبع

- (1) الفوائد، ص (124)، طبعة دار عالم الفوائد.
- (2) مدارج السالكين (1/206).
- (3) البخاري
- (4) رواه البخاري (6780).
- (5) فتح الباري (12/78).
- (6) رواه الإمام أحمد (213/2) قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، والترمذى (2639).
- (7) منهاج السنة (6/218).
- (8) رواه البخاري (3467).
- (9) منهاج السنة (6/221).

موقع المسلم

المصادر: